عقـــدة الأب

(Father Complex)

في رأي الفيلسوف ابنه فلدرده

للأستاذ أمين محمد عثمان

آمنت ولا زلت أومن بأن في التراث العربي العريق ، كنوزا مطمورة ، تحتاج إلى من ينقب عنها ، ويخرجها من كهوف النسيان ، إلى عالم النور والرقي . وقد بينت في مقالي الأسبق « صحيفة مطوية في البلاغة العربية » أن نظرية الإدراك بالإجمالي والتفصيلي ، لم تكن وليدة القرن العشرين ، ولا هي بنتا من بنات أفكار علماء النفس المحدثين ، بل سبق إليها عالم من علماء العرب منذ تسعة قرون ، وهذا مثل آخر من آلاف الأمثلة أسوقه للأدباء والباحثين الذين يهرم زخرف الحضارة الأوربية ، علهم يعطون الحضارة الإسلامية التي أساءوا الظن بها ، قسطا وافرا من العناية

لقد كانت الفلسفة المسيحية تذهب إلى عهد قريب ، إلى أن الطفل شرير بطبعه ، وأنه يولد محملا بكثير من الشرور والآثام فيجب أن يقمع ذلك فيه بالشدة والعنف ، وأن يسلك به سبيل التعذيب والإيلام . وقد نحا المتنبي هذا المنحى في شعره فقال :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد
ذا عفة فلعلة لا يظلم

وهذا عين الخطأ ، فلا الطفل شرير بطبعه كما تقول للفلسفة المسيحية ، ولا هو خير بطبعه كما يقول (جان جاك روسو) كما أن عقليته ليست كالصحيفة البيضاء يسطر المربي عليها ما يشاء ، كما ذهب إلى ذلك (جون لوك)

ولكن الطفل يولد مزودا بالغرائز والنزعات الفطرية ، وهي ميراثه من أبويه ومن النوع الإنساني ، فعلينا أن نعمل مع هذه النزعات لا ضدها ، وأن نحاول إعلاءها ، وتكوين العواطف النبيلة فيها

وهناك مرحلتان من مراحل النمو لهما أكبر الأثر في حياة الناشئ فإن هو جازهما بسلام ، فقد اجتاز العقبة كلها إلى شاطئ الأمان ، وإن تعثرت خطاه فيهما أو لعبت بنفسه أعاصير التربية العارمة فإني أخشى أن تهوي بنفسه أمواج الأمراض النفسية إلى قرار سحيق

أما أولاهما : وسنقتصر الكلام عنها الآن : فهي مرحلة الطفولة المبكرة ويعلق فرويد (Freud) عميد علماء التحليل النفسي ، و (آدلر) مؤسس مدرسة علم النفس الفردي أهمية كبرى على هذه المرحلة ، ففيها تتكون أهم قوالب السلوك عند الإنسان وهي التي تحدد الخطوط الشخصية الأساسية فيما بعد ، ولقد دلت البحوث النفسية على أن كثيرا من الانحرافات النفسية الحقيقية والخطورة التي يصاب بها الشاب أو الرجل ، ترجع إلى صدوع نفسية في الطفولة الأولى ، وفي هذه المرحلة يأخذ الطفل فكرة عن نفسه ، مما نوحي به إليه نحن . فالطفل الذي ننعته بأنه شقي وبأنه مجرم ، وبأنه لا يفلح سرعان ما يتشرب هذه الفكرة عن نفسه ويعمل على أن يسير بمقتضاها ، وعلى العكس إذا أخذنا نصف الطفل بأنه مهذب ، وبأنه شجاع فإنه يتقبل عن نفسه هذه الفكرة ويتشبع بها ، ويجهد نفسه في تنفيذها ، وفي هذه المرحلة يتكون لدى الطفل سلطة داخلية هي ما نسميها بالضمير أو الرقيب أو النفس اللوامة ، أو الحافظ ، كما يقول الله تعالى « إن كل نفس لما عليها حافظ » هذا الضمير أو الرقيب إن هو إلا خليفة الأبوين ويتكون لا شعوريا من طريق الأوامر أو النواهي التي تصدر منهما إليه ، فإن كان الأب من الصنف الصارم الجاف الذي يحاسب على اللفتة والحركة ويعاقب على السهوة ، ويسرف في الأمر والنهي ، والصفع واللكز ، ويفرط في التأنيب واللوم ، فإن هذه التربية كما يقول الدكتور عزت راجح في كتابه « الأمراض النفسية » .. تصبح لها صدى في ضمير الطفل اللاشعوري يمثل السلطة الأبوية ، فترى ذلك الضمير قد أصبح يتطلب من الطفل ما يتطلب ذلك الأب المتعسف وأكثر ، يحاسبه على كل صغيرة وكبيرة ، ويحرم عليه القيام بأشياء لا ضرر منها ، ولا شر عليها ، فترى الطفل يشب وقد أمسى شديد الحساب لنفسه وللناس ، شديد الحذر والتوجس من نفسه ومن الناس ، ينشأ مشحون صريخ أو مضمر

أنه مخطئ أو آثم » وبهذا تتكون عنده عقدة الإثم والحاجة إلى عقاب النفس

وجاء فى كتاب « أسس الصحة النفسية » للدكتور عبد العزيز القوصى ، عند الكلام على « عقدة الأب » ، منشأ هذه العقدة قسوة السلطة وصرامتها ، وشدة الجو المنزلى وبترتب على قسوة السلطة وامتصاص الطفل لها ، أن يعكسها على نفسه ، ويعكسها على الناس ، وعندما يعكسها على نفسه يكون قاسيا عليها شديد النقد لها ، كثير التبرم بها ، غير راض عنها ، شاعرا بخطئه على الدوام ، يخشى لوم الناس ونقدهم ، ويحسب لهم ألف حساب ، وعندما يعكسها على الناس يكون أيضا شديد النقد لهم ، قاسيا عليهم ، يتمتع بإبراز خطاياهم »

وقد ذكر علماء النفس : أن هذا باب جديد ، فتحه فريق من أصحاب « التحليل النفسى » وخطوا فيه خطوات موفقة ، واستطاعوا به تعليل كثير من مظاهر السلوك الزائغ والاعتلال النفسى

وقالت هؤلاء ، أن هذا الباب الجديد ، قد طرقه الفيلسوف ابن خلدون واستقصى البحث فيه منذ ستة قرون ، وقد ذكر ابن خلدون فى مقدمته المشهورة أن « الشدة على المتعلمين مضرة بهم » وعلل هذا بأن من كانت نشأته فى أحضان القهر ، وتربيته فى مهاد القسوة والعنف لا سيما إذا كان صغيرا ، سطا به القهر ، وضيق على النفس فى انبساطها ، وذهب بنشاطها ودعا إلى الكسل ، وحمل على الكذب والخبث وهو التظاهر بغير ما فى ضميره خوفا من انبساط الأيدى بالقهر عليه وعمله المكر والخديعة لذلك ، وصارت له هذه عادة وخلقا ، وفسدت معانى الإنسانية التى له من حيث الاجتماع والتمدن وهى الحمية والمدافعة عن نفسه ومنزله وصار عيالا على غيره فى ذلك ، بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل ، فانقبضت عن غايتها ومدى إنسانيتها فارتكس وعاد فى أسفل السافلين »

ولم يكتف ابن خلدون ببيان الأثر الذى تحدثه سياسة الشدة بالأفراد ، بل قال إن أثرها فى الأمم أشد خطرا وأبعد أثرا ، فالأمة التى تقع فريسة للاستبداد ، صديقة للشدة والعنف ، هى أمة تنشأ على الذل والخوف ، وتربى فى أحضان الفساد الخلق فيصير ذلك خلقا وطبيعة لها . انظر إلى بنى إسرائيل ، وقد لبثوا تحت حكم الفراعنة أحقابا يسومونهم سوء العذاب ، يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم ، فلما أذن الله لهم ، وأخرجهم موسى بعصاه ، من أرض الفراعنة إلى صحراء سيناء ، أوحى الله إلى موسى بأن يستعد هو وقومه لدخول الأرض المقدسة ومقاتلة من فيها من العمالقة . ولكن الخوف كان قد استبد بهم ، وذهب الرعب بقلوبهم كل مذهب وقد تعود زعماؤهم أن يكونوا عبيدا المستعمرين « قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ، قال رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى ، فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ، قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين » . وبين ابن خلدون بعد ذلك أن الحكمة فى وقوعهم فى التيه أربعين سنة ، هو انقراض هذا الجيل الذى نشأ فى أحضان القهر والعسف ، ومجىء جيل آخر تربى فى أحضان الصحراء ، تحت سمع الحرية وبصرها ، وكان على يديه فتح الأرض المقدسة

وكما يحلو لعلماء النفس ، أن يوجهوا نصائحهم وإرشاداتهم إلى مربى النشء فإننا نرى كذلك ابن خلدون ، يدل المربين على الطريقة المثلى فى التربية الصحيحة فيقول : فينبغى المعلم فى متعلمه ، والوالد فى ولده ، ألا يستبدوا عليهم فى التأديب . ومن أحسن مذاهب التعليم ما تقدم به الرشيد لمعلم ولده محمد الأمين فقال : يا أحمد إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه ، وثمرة قلبه . فصير يدك عليه مبسوطة ، وطاعته لك واجبة ، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين .. أقرئه القرآن ، وعرفه الأخبار ، وروه الأشعار ، وعلمه السنن ، وبصره بمواقع الكلام وبدئه ، وامنعه من الضحك إلا فى أوقاته ، وخذه بتعظيم مشايخ بنى هاشم إذا دخلوا عليه ، ووقع مجالس القواد إذا حضروا ، ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها ، من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ، ولا تمعن فى مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه ، وقومه ما استطعت بالقرب واللاينة ، فإن أباها فعليك بالشدة

أمين محمد عثمان
دبلوم معهد التربية العالى